شاعر البارودي

للدكتورة سعيدة رمضان

تتشابه حياة محمود سامي البارودي وحياة كثير من رجالات الدولة في مصر ، ممن كانوا ينحدرون من أصول غير عربية ، ويرتبطون ـ مع ذلك ـ ارتباطاً وثيقاً بها ، وميزة محمود سامي البارودي ـ كما سنرى ـ أنه كان شديد الانتماء للأرض التي ترعرع عليها ، وأهم من هذا وذاك أنه كان يملك من الشاعرية أوفى نصيب ، وهذا ما سيخلد اسمه على مر الأيام .

وينحدر الشاعر من أسرة جركسية يتصل نسبها بالمماليك ، ومولده في ٢٧ رجب ١٢٥٥هـ/٧ أكتوبر ١٨٣٩ ـ قبل أفول نجم محمد علي بعشر سنوات .. وكان والده حسن حسني (بك البارودي) أميراً من أمراء المدفعية ثم عين مديراً لبربر ودنقلة ، وجده عبد الله (بك الجركسي) كان يشغل وظيفة كاشف ـ وتعادل وظيفة مأمور فى عصرنا الحاضر ـ وأحد أجداده (الأمير مراد) كان ملتزما لبلدة ايتاى البارود فنسب اليها ، شأن الملتزمين بالبلدان في ذلك الحين ، إذا كانوا ينسبون الى أماكن عملهم ـ فكان لقب البارودي له وللأسرة من بعده[1] .

ومن الأقوال الهامة عن ثقافة البارودي ما يجيء في «الوسيلة الأدبية»[2] (لم

(١) ديوان البارودي جـ ١ ص ٦ ـ مقدمة بقلم د . محمد حسين هيكل ـ وهناك آراء أخرى حول هذا النسب . انظر ـ على سبيل المثال ـ د . على الحديدي : البارودي شاعر النهضة من ١٧ ، ١٨ ، والزركلي : الأعلام جـ ٨ ص ٤٧ .

(٢) الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ٤٧٤ .

يقرأ ـ البارودي ـ كتاباً في فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلاً الى قراءة الشعر وعمله . فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيأة التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات ، حسب ما تقتضيه المعاني والتعلقات المختلفة) ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن البارودي لم يطلع ـ قبل أن يبلغ سن التعقل ـ على أي كتاب في « فن من فنون العربية » وإنما المقصود أنه استمد معرفته بأصول النحو واللغة من كتب الأدب مباشرة .

يضاف الى هذا أن البارودي كان قد تلقى قدراً من التعليم المتصل بالنحو واللغة منذ حداثة سنه ، كذلك فان أحد أخواله كان فيما يبدو مولعا بالشعر وفي هذا يقول الشاعر :

انا في الشعر عريق
لم أرثه عن كلاله
كان ابراهيم خالي
فيه مشهور المقاله

المدرسة الحربية :

في سنة ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م التحق محمود سامي بالمدرسة الحربية شأنه شأن أمثاله من الجراكسة والترك وأبناء الطبقة الحاكمة ممن كانت الجندية مظهر السيادة والعزة بالنسبة لهم ، ولينهضوا بالمناصب الرئيسية في الدولة(١) ، على أن اللغة العربية لم تكن موضع دراسة او اهتمام بالمدرسة ،الى حد أن « من تكلم بها من طلبة المدرسة الحربية توضع في فيه العقلة التى توضع في فم الحمار حينما يقص . ويبقى كذلك نهاراً كاملاً ، عقوبة له على تحريك لسانه بلغة القرآن الكريم في أثناء فسحته »(٢) .

في هذا الجو الذى تسيطر فيه اللغة التركية قضى سنوات الدراسة الأربع ومن حسن الحظ أن إقباله على اللغة العربية وآدابها كان قد نما في نفسه وتشربت منه روحه قبل أن يلتحق بهذه المدرسة ومن

(١) ديوان البارودي جـ ١ ص ٧ .
(٢) الشيخ المهدي : محاضرات بمدرسة القضاء الشرعي ، نقلا عن شوقي ضيف : البارودي ص ٤٨ .

ثمَّ بقي على حبه للغة الضاد على الرغم من كل شيء .

تخرّج محمود سامي في الكلية الحربية في عام ١٢٧١هـ / ١٨٥٤م برتبة « باشجاويش » في أول عهد سعيد ، أي في وقت كان قد سرح فيه الجيش ، وركدت الحياة الثقافية والعلمية ، وأغلقت المدارس ، واتسع الوقت للفراغ والخمول ، فبقي بعد تخرجه نحو ثلاث سنوات ، انكب في أثنائها على القراءة في كتب اللغة والأدب والدواوين ، وبخاصة شعر الحرب والفروسية والحماسة ، وكأنما حركت هذه القراءة الحنين في نفسه للأسفار ومعايشة أجواء أكثر حيوية وأهمية ، ومن ثم نراه يقرر السفر الى تركيا .

استقر البارودي في سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م في الأستانة حيث عمل بوزارة الخارجية وتهيأت له الأسباب للتثقف بالثقافة التركية والفارسية وزيارة المكتبات هناك ، فعكف على ما فيها من مخطوطات عربية يستوعب منها ما يتفق وذوقه ومزاجه الأدبي ، وبدأت قريحته في التدفق بشعر صادر عن طبيعة فطرية فيه كما يقول « ولقد كنت في ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة ألهج الحمام بهديله ، وآنس به أنس العديل بعديله »[1] ، وهكذا قضى الشاعر فترة وجوده بالاستانة بين الوظيفة ، وقرض الشعر ، والحنين الى أهله . ولعل من هذا الحنين تذكره لوالده الذي توفي وتركه في السابعة من عمره ، وهذه الأبيات من أوائل شعره الجيد ، قالها وقد ناهز العشرين :

لا فارس اليوم يحمي السرح بالوادي
طاح الردى بشهاب الحرب والنادي
مات الذي ترهب الأقران صولته
ويتقي بأسه الضرغامة العادي
مضى وخلفني في سنّ سابعة
لا يرهب الخصم إبراقي وإرعادي
فإن أكن عشت فردا بين آصرتي
فها أنا اليوم فرد بين أندادي
بلغت من فضل ربّي ما غنيت به
عن كل قار من الأملاك أو بادي

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٥٨ ـ مقدمة البارودي لديوانه .

تبعت نهـج أبي فضـلاً ومحميـةً
حتى بـرعت ، وكان الفضل للبادي

ظل محمود سامي بالأستانة حتى عام ١٢٧٩هـ/١٨٦٣م عندما سافر اسماعيل اليها ، مقدما الشكر للسلطان العثماني على تعيينه والياً على مصر ، وكان البارودي ممن ألحق بحاشية اسماعيل أثناء اقامته بدار الخلافة ، وتوسم فيه اسماعيل خيرا ، فاصطحبه معه الى مصر ، وقد سجل البارودي تهنئة لاسماعيل عند عودته الى مصر استهلها بقوله :

طرب الفؤاد وكان غير طروب
والمرء رهن بشاشة وقطوب

عودة البارودي من الأستانة ورحلاته الحربية :

عاد البارودي الى مصر لينخرط في سلك الجيش ويترقى في وظائفه حتى عين قائداً لفرقة الفرسان ، فتحققت بعض أطماعه المتفقة مع روح الفروسية المتوثبة في نفسه وتيسرت أمامه سبل الأسفار وكان أولها رحلته الى فرنسا مع لفيف من الضباط لمشاهدة استعراض الجيش هناك ثم توجه منها الى انجلترا في رحلة مماثلة ، وعاد بعدها الى القاهرة ، وانطبعت في نفسه بعض مشاهداته في أوروبا[(١)] ، وظل يترقى في سلاح الفرسان ، حتى وصل الى رتبة أميرالاي ، وكان مقرباً من اسماعيل قائداً لعسكر حرسه الخاص .

وتتحقق أحلام البارودي باشتراكه في المعارك الحربية إذ يندلع القتال في سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م في جزيرة كريت ضد الدولة العثمانية فيتوجه البارودي على رأس قوة من الجيش المصري لاخماد الثورة بالجزيرة ، ويتاح له المجال لكي تتفجر مشاعره بقصائد البطولة والفروسية والحنين الى الوطن مترنماً بأشعار تعكس طابع الأشعار الحماسية العربية مثل قوله :

(١) في الديوان جـ . ص ٨٩ : أن البارودي أرسل مع مجموعة من الضباط سنة ١٨٦٣ الى فرنسا ثم انجلترا للافادة من خبرة ضباط الجيش ودراسة النظم العسكرية فيها وفي انجلترا دعاهم أحد النبلاء الانجليز لرحلة صيد في الريف فوصفها في أبيات من ص ٨٩ ـ ٩٥ .

ولما تداعى القوم واشتبك القنا
وداورت كما تهوى على قطبها الحرب
وزين للناس الفرار من الردى
وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا
سقينا بكأس لا يفيق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها
وإني صبور إن ألمّ بي الخطب

وكذا قصيدته :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان
وهفا السرى بأعنة الفرسان

وبعد العودة يعين البارودي ياورا للخديوي اسماعيل ثم كبير الياوران لابنه توفيق ، ويمنح وسام الدرجة الرابعة من الدولة العثمانية ويظل في منصبه حتى عام ١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٥م عندما عينه اسماعيل سكرتيراً خاصاً له ثم كاتماً لأسراره .

ويقضي سنوات بمصر بعيداً عن ميدان القتال ويتسع أمامه الوقت لقول الشعر فينشد قصائد في الغزل والوصف والفخر ويعكف على الدواوين الشعرية ليقدم معارضاته للشعراء القدامى ، من أمثال أبي نواس والشريف الرضي والمتنبي وغيرهم .

وفي ربيع الثاني عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م تعلن روسيا الحرب على الدولة العثمانية ، وتنضم الى روسيا رومانيا وبلغاريا ، فيرسل الخديوي اسماعيل قوة من الجيش يكون البارودي أحد قادتها ، وتستمر هذه الحرب قرابة العام ، ولكنها تنتهي بهزيمة تركيا ومعاهدة « سان استفانو » في سنة ١٢٩٥هـ (مارس١٨٧٨م) . ويعود البارودي بعد أن يكون قد سجل هذه المعارك شعراً أودع فيه نبضات قلبه ، وحنينه الى وطنه وانفعاله بما شاهده من حروب ونزال ، وقد مزج في بعض قصائده في هذه الفترة بين الغزل ووصف الحرب مثل قوله :

هنيئا لريا ما تضم الجوانح
وإن طوحت بي في هواها الطوائح
فيا روضة المقياس حياك عارض
من المزن خفاق الجناحين دالح
فلست ترى الا كماة بواسلا
وجردا تخوض الموت وهي ضوابح

نغير على الأبطال والصبح باسم
ونأوي الى الأدغال والليل جانح

عاد البارودي من الحرب - وكان قد بلغ الأربعين - فعين مديراً للشرقية ، ثم محافظاً للقاهرة . لكن الأحوال لم تستقر واشتدت النقمة على نهج اسماعيل مما اضطره الى أن يكلف أحد الوطنيين العقلاء - شريف باشا - بتأليف الوزارة وبدأ في وضع قواعد الدستور الجديد ، ولكن الانجليز والفرنسيين حرضوا الدولة العثمانية على عزل اسماعيل وتولية توفيق مكانه ، فتم ذلك في سنة ١٢٧٩هـ/ يونيه ١٨٧٩م .

شكل شريف الوزارة في عهد الخديوي توفيق وعين البارودي وزيراً للمعارف والأوقاف . وأنشد البارودي في هذه المناسبة أبياتاً لتوفيق يحثه فيها على عقد مجلس شورى النواب ، ويطالبه بكف الظلم والاستبداد عن الشعب فيقول :

هيهات يحيا الملك دون مشورة
ويعز ركن المجد مالم يعمد
فاعكف على الشورى تجد في طيها
من بينات الحكم ما لم يوجد

الاحتلال الانجليزي ونفي البارودي :

تشابكت الأحداث السياسية ، وعمت الاضرابات في عهد توفيق مما أدى الى استقالة شريف .

وعاد الوزيران الأجنبيان في الوزارة التي شكلها رياض وظل البارودي كما هو في منصبه ، ومن أهم الاصلاحات التي قام بها في هذه الفترة أنه « أمر بجمع الكتب الموقوفة المتفرقة في المساجد ووضعها في مكان واحد ، وأمر كذلك بجمع الآثار العربية ووضعها في مسجد الحاكم استعداداً لبناء دار خاصة بها »[1] .

وتشتد حركة عرابي ورفاقه وتمضي الحوادث حتى يعين البارودي رئيساً للوزراء ، ويقدم القنصلان الانجليزي والفرنسي إنذاراً في ١٢٩٩هـ/ (٢٥ مايو ١٨٨٢م) مطالبين بنفي عرابي ،

(١) شوقي ضيف : البارودي رائد الشعر الحديث ص ٧٢ .

ويرفض البارودي الإنذار ، ويتتابع الموقف الى أن يبلغ ذروته على أثر قصف الاسكندرية بواسطة الأسطول الانجليزي ثم احتلال مصر ، والقضاء على حركة عرابي ، ونفي قادة الحركة ومنهم البارودي الى سرنديب (سيلان)(١) .

المنفى :

أُرسل البارودي مع قواد الحركة العرابية الى جزيرة « سرنديب » في سنة ١٣٠١هـ (٢٨ ديسمبر ١٨٨٢م) وقضوا في كولومبو سبعة أعوام مليئة بالضيق والألم ؛ وكان كل منهم يلقي اللوم على زميله حتى ضاق ذرعا ، فارتحل الى بلدة كندى حيث قضى بقية سنوات المنفى (عشرة أعوام)، تعلم في أثنائها اللغة الانجليزية ، وعلم بعض أهلها اللغة العربية والدين الإسلامي . وقد طبعت اللوعة والحنين شعره في هذه الفترة فهو دائم الشوق لوطنه ، حزين لفراق الأحبة من الصحب والرفيق، حتى الزوج(٢) والولد والبنت (٣) أصيب بفقدهم فى اغترابه .

وهكذا مرت سنوات المنفى مليئة بالأسى واللوعة ، فمن شيخوخة تثقل كاهله ، الى مرض يدب في أوصاله ، الى بريق عينيه ينطفىء يوماً بعد يوم ، حتى أذن الله بالفرج بعد سبعة عشر عاماً من المنفى ، إذ أصدر الخديوى عباس حلمي قراراً بالعفو عنه وهذا نصه :

« بناء على الإنهاء المرفوع لنا من محمود سامي بالتماس الاحسان عليه بالتمتع بالحقوق الوطنية، قد اقتضت مكارمنا منح المومى اليه التمتع بالحقوق الوطنية ، وعلى ذلك فيجوز له من الآن امتلاك أي ملك من أي نوع كان في الاقطار المصرية بطريق الإرث أو الهبة أو البيع أو بأي طريقة كانت الذي كان

(١) في الديوان جـ٢ ص١٠٨ (هامش) أن البارودي استقال في ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢ م وبعدها بأيام ضربت الاسكندرية ثم كان الاحتلال . وأورد الديوان قصيدة من تسعة عشر بيتا قالها بعد الاستقالة .

(٢) الديوان جـ ١ ص ٨١ هامش : توفيت بمصر زوجته «عديلة يكن» عن سبعة وثلاثين عاما سنة ١٨٨٥ فرثاها بقصيدة دالية في ٦٧ بيتا . وانظر ايضا جـ١ ص ٢٣٧ هامش ، أن «عديلة يكن» توفيت بالقاهرة سنة ١٨٨٣ !

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة : نعيت اليه ابنتها «سميرة» بعد زوجته بقليل فرثاها ببيتين من الشعر .

محروماً منه بمقتضى الأمر العالي الصادر في ٣٠ من صفر ١٣٠٠هـ(١٤ ديسمبر ١٨٨٢) وأصدرنا هذا لعطوفتكم لاجراء مقتضاة .

« عباس حلمى » .

وتاريخ هذا الأمر ٨ من المحرم سنة ١٣١٨هـ(١٧ مايو ١٩٠٠) ، فلما صدر هذا الأمر وردته السفينة الى وطنه ، كان أول ما قاله إثر عودته قصيدته التي مطلعها :

أبابل رأي العين أم هذه مصر
فإني أرى فيها عيونا هي السحر

هذا نص ذكره هيكل في المقدمة ، ففهم أن عودة البارودى الى مصر كانت بعد التاريخ المذكور ، غير أننا نجد فى الديوان مقطوعة للبارودي « يمدح بها الخديوى عباس حلمى الثانى ، ويشكره على ما أولاه من حسن الرضا وذلك بعد عودته من سرنديب سنة ١٣١٧هـ(أواخر سنة ١٨٩٩م) » وبهامش الديوان « وفي بعض ما كتب البارودي أن الشيخ « محمد عبده » أخذ بيد صديقه الكفيف الضرير« محمود سامي البارودي » وصحبه الى حضرة الخديوى « عباس حلمي الثاني » فشكر له البارودي عفوه عنه ، ونظم هذا الشكر في هذه القصيدة الهمزية - ثمانية أبيات - وقد فقد البارودي بصره في أواخر أيامه بالمنفى سنة ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) .

فهل كانت عودته فى عام ١٨٩٩م ثم تبع ذلك « الإحسان عليه بالتمتع بالحقوق الوطنية في عام ١٩٠٠ م » ؟

أيا كان الأمر ، فان الشاعر العبقرى عاد - بعد طول الغربة - لأهله ومحبي أدبه[1] .

نهاية المطاف :

ما أن عاد الشاعر لأرض الوطن حتى سرى بعودته دم جديد في الحياة الأدبية وأصبحت داره مقصد الأدباء والشعراء يلتفون حوله ، وحفلت هذه السنوات بنشاط أدبي كبير للبارودي فقد كتب مقدمات لبعض الدواوين الشعرية كما

(١) الديوان جـ٢ ص ١٤٤ . بالهامش نبذة طويلة عن عودة البارودي من المنفى وفيها أنه غادر الجزيرة اول سبتمبر ١٨٩٩ م ووصل ميناء السويس ١٢ سبتمبر ١٨٩٩ م وأنه عاد مع احمد عرابي وعلي فهمي ويعقوب سامي .

فعل مع ديوان الرافعي ، وديوان حافظ ابراهيم ، كذلك عكف على تنقيح شعره ليقدمه للطبع ، وعلى مختاراته يرتبها . الا أنه فارق الحياة في السادس من شوال سنة ١٣٢٢ هـ (١٢ ديسمبر ١٩٠٤ م) قبل أن يتمكن من تحقيق ماكان يصبو اليه .

وقد تولت أرملته - (وهى سيدة أمينة هانم ، كريمة يعقوب باشا سامي ، أحد زعماء الحركة العرابية ، وكان البارودي قد اقترن بها فى أواخر سنة ١٨٨٥م) وطبع المختارات على نفقتها ، وتقع هذه المختارات في أربعة أجزاء ضخمة ، جمع فيها نماذج لثلاثين شاعراً مثل بشار بن برد وأبى العتاهية وأبي نواس ، ومسلم بن الوليد والعباس ابن الأحنف، وصالح بن عبد القدوس ، وابن المعتز ، وأبي تمام والبحتري ومهيار الديلمي والمتنبي وأبي فراس وأبي العلاء المعري وابن عنين . . . الخ

وكان لهذه المختارات التي تبلغ نحو أربعين ألف بيت - أثر عميق فى الحركة الأدبية إذ أن شعر هؤلاء المشاهير لم يكن ميسوراً ، وكان تقديمه مجموعا مشروحاً خطوة هامة عرّفت القراء بالشعر العربي في عهده الزاهر ، وأوضحت للأدباء الطريق السليم الذي ينبغي أن يسلكوه .

أما الديوان فإن الذي قام على شرحه والإشراف على طبعه محمود الإمام ، صديق البارودي ورفيقه في أيامه الأخيرة ، وبدىء بالطبع - على نفقة أرملته أيضاً - في أوائل الحرب العالمية الأولى ولم يظهر منه إلآ جزءان وقفا عند نهاية قافية اللام .

وأعيد طبع الديوان بعد ذلك حيث صدر في أربعة أجزاء ، حقق الأول والثاني منهما علي الجارم ومحمد شفيق معروف ، وانفرد محمد شفيق معروف بتحقيق الجزئين الثالث والرابع .

قيد الأوابد :

وللبارودي بعض أعمال نثرية متفرقة ، منها خطب سياسية ومقدمات دواوين لبعض الشعراء، وأهم من هذا كله كتاب - لم ينشر بعد - يحمل عنوان« قيد الأوابد » وليس من السهل التحدث عن هذا العمل الآن ، وقد ذكر

عمر الدسوقي في كتابه «محمود سامي البارودي» ان الكتاب مختارات جمع فيها «عيون الرسائل والخطب والتوقيعات» لكن المرجح أن مادة الكتاب في مجموعها تدور حول سوانح الشاعر، وصور ما مر به من أحداث ومحن .

والكتاب ينتمي الى ما يعرف باسم «النثر الفني» الذى غلبت عليه الصنعة، وبخاصة السجع والطباق وما إلى ذلك من محسنات وكأن البارودي نجح في شعره في التخلص من آثار الصنعة ، لكنه لم يتمكن من ذلك في نثره ، وهذا يشبه كذلك صنيع شوقي الذى ترك أعمالاً نثرية متعددة ، طابعها السجع ، فى الوقت الذى جاء فيه شعره صافيا يشبه شعر فحول الشعراء العباسيين .

وأول الكتاب :

« إني لما أفضت بي غوائل الزمن ، الى مفارقة الأهل والوطن ، وحققت كلمة الوداع ، وأنصت كل مجيب وداع ، سارت بأشباحنا الفلك ، بتقدير من له الملك ، فلما توسطنا لجة اليم ، وغشيتنا ضبابة الهم ، أخذ البحر يهدر ويموج ، والريح تعصف وتروج ، والدجن يبرق ويرعد ، والموت يقرب ويبعد ، والفلك بين صعود وهبوط ، والناس بين رجاء وقنوط ، فشخصت الأبصار ، وغابت الأنصار ، وأقبل الفزع واستولى الجزع ، وشغلت الدموع المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر ، هنالك دعا ربهم الغافلون ، وكف أذيالهم الرافلون ، فلا ترى الا ناكس الطرف ، لا ينبس بحرف ، كأنما أظلتهم الرجفة ، أو غشيتهم الوجفة ،فهم لفرط الحيرة خمود(تحسبهم أيقاظا وهم رقود)، فلم يزل يتخبطنا اليم ، ويأخذ بأكظامنا الغم ، حتى كادت الأنفس أن تزهق ، وأظفار المنية ترهق ، ونحن فى وعاء ، لا نملك غير الدعاء ، ولبثنا على ذلك ثلاثا ، لا نجد فيها غياثا ، وكيف لنا بالخلاص ، ولات حين مناص ، فبعد لأي ما سكنت فورة الريح ، وهدأت ثورة ابن بريح ، وتجلت بنورها السماء ، واصطلح الماء والهواء ، فقرت الأنفس فى الصدور وتنفس كل مصدور ، ولم

يبق الا سوق الحديث ، من قديم وحديث ، والفلك يمخر البحر بجؤجؤه، ونحن من الشهر فى دؤدؤه، حتى انتهى بنا الدبيب ، ولاحت لأعيننا سرنديب .

منازل لم تألف بها النفس مألفا
على أن فيها كل ما تشتهي النفس
ولا عيب فيها غير أن ليس لي بها
أنيس وفقد الخل في غربة حبس
وكيف يطيب العيش في ظل بلدة
خلاء من الألاف ليس بها أنيس

فدخلتها مشبوب الأنين ، على الأهل والبنين، لا أستطيع لما عراني دفعا ، ولا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا . وما ظنك بمن غاب عنه السمير ، والتاع بالفرقة منه الضمير ، فهو بين هموم ناصبة ، وأحزان واصبة ، وأشجان يهلك لها الصبر ، ومرارة يحلو عندها الصبر ، ان نطق فبصوت لا يدركه السمع ، أو نظر فبعين قد ملأها الدمع :

غريب تخطاه الأساة فما له
سوى عبرات المقلتين طبيب
وما أسفي أني غريب عن الحمى
ولكنني بين الأنام غريب

ثم يمضي واصفاً أهوال الطبيعة وزئير الرعد ، وسيره والعواصف تقعقع من حوله ، حتى سكن الكون وغنت الطيور ، عندئذ رأى غلامه كافور ، وقد استبد به المرح لصفاء الجو بعد طول اضطراب ، لكن الشاعر لا يجد فى نفسه ميلا للطرب والمرح :

« وأين يذهب اللهو بقلب قد عفى رسمه ولم يبق في الشغاف الا وسمه ، بل كيف يطرب الغريب أو يخف الى الصبوة الغريب ؟ هيهات ! ما كل شامة خالا ، ولا كل حلقة خلخالا ، . . . . تالله ما بعد الوطن دار ولا في غير الكعبة مدار» .

ويصف كيف استقر فى «كندى» ممتدحا محاسن الطبيعة فيها حتى وصل الى عين جارية استراح عندها لحظة من الزمن ، الا أن آلام نفسه تفجرت من جديد ، وأحس بان الدنيا تسود فى وجهه ، ولم يفرج عنه الا اتجاهه الى الله يتوسل اليه ، أن يلهمه الصبر ، وعندئذ أحس براحة تغمره :

« وأخذت أقلب الآراء ، وأسأل زندي

الإبـراء ، حتى فـاءت إليَّ نفسي ، وراجعني بعد لأي حـدسي، وعلمت أن لكل محنة روعة ، ولكل مصيبة لوعة وأن الانسان رهن الحدثان ، ورأيت أن الصبر على الضر أجدر بشيمة الحر ، وأي امرىء عاهده الدهر ولم يغدر ،أو صفا له ثم لم يكدر ؟ وكيف لا ينقلب الحال والزمان قلب، أم كيف تصدق مخيلته وهي خلب ؟ هيهات ما وعد الا وأخلف ، ولا أوعـد الا وأتلف ، ولا أضحـك الا وأبكى ، ولا هادن الا وأنكى ، وقل من صاحب الدهر فنجا من هوله ، أو عانده ولم يصعق من صوله ، وكفى بالحوادث لمن تبصر نذيرا ، ولمن خاف عاقبة أمره حذيرا ، والعاقل من تأسى بغيره ، وميز بين نفعه وضيره ، فلا تحزن على ما ذهب ، اذا استرد الدهر ما وهب ، وليست الحيـاة إلاّ عارة ، فمـا هـذه الدعارة ، أفحسب الجاهل أن الأمـر بيده ، فنسي أن يأخذ من يومه لغده ؟ هيهات لا دراك بعد الفوت ، ولا حيلة بعد الموت ، فتمسكوا من أعمالكم بالسبب الأقوى ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » .

وهذا النص ـ على الرغم مما فيه ممن صنعة بديعية ـ يعد فريدا في بابه ، فانه يعلو على الاساليب التي كانت متداولة في عصر البارودي ، اذ تحفل الجمل بالثراء الفكري واللغوي والفني ، مما يكسبها شاعرية وجزالة وعمقا .

ولهذا الكتاب أهمية كبرى بالنسبة لدراسة حياة الشاعر لأن فيه ومضات ذات ذاتية هامة ، بالاضافة الى ما فيه من نصوص شعريـة لم يتضمنها الديوان .

القديم والجديد في شعر البارودي :

سمات عامة :

يعد البارودي رائد الشعر الحديث لا بما أحدثه من تجديد فكري وابتكار لفظي ، بل بما اقتفاه من آثار الشعراء العظام . فالتجديد عنده اذن ليس في اختراعه فنا من فنون القول أو قالبا من قوالب النظم ، بل بما بعث من دعائم الشعر القديم ، في وقت حلت فيه الصنعة والزخرف محل حسن الصياغة وجدية الموضوعات والأفكار . لقد عاد بذكاء وعبقرية الى روافد الشعر

العربي ينهل منها ما يشاء ، تساعده على ذلك قدرة فائقة على الحفظ والاستيعاب ، فكان ان تمثلت أمامه الألفاظ العربية الأصيلة واستوعبت نفسه الموضوعات القديمة التي سار عليها الشاعر العربي ، ورفض أن يجاري شعراء عصره في المحسنات والألفاظ والأفكار المتمثلة في التهنئة بمولود أو زفاف أو غيرها من موضوعات لا تمثل صدق انفعال الشاعر وتجاربه ، ولذلك نراه يقول ممجدا الشعر والشاعرية :

والشعر ديوان أخلاق يلوح به
ما خطه الفكر من بحث وتنقير
كم شاد مجدا وكم أودى بمنقبة
رفعا وخفضا بمرجو ومحذور
لولا أبو الطيب المأثور منطقه
ما سار في الدهر يوما ذكر كافور

ويهتف واصفا شعره :

لم تبن قافية فيه على خلل
كلا ولم تختلف في رصفها الجمل
فلا سناد ولا حشو ولا قلق
ولا سقوط ولا سهو ولا علل

والبارودي بعودته الى تقاليد الشعر العربي القديم لم يعش بمعزل عن عصره ومعاصريه بل جعل من أحداث عصره وانفعالاته وعاءً يغترف منه موضوعات قصائده . كما أن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاشها جعلت لشعره طابعا جديدا ، ولعل تشابه الأحداث والمتغيرات في عصره بما حدث في العصر العباسي كان وراء شدة تعلقه بأجواء ذلك الشعر القديم ، وكأنه رأى أن ذلك القديم ليس الا قشرة خارجية ، وأن عناصر البقاء والاستمرار ماثلة فيه ، مكسبة اياه هالة من البهاء والصفاء والحيوية ، ومن ثم سبح في تياره ، ولكن في حذق ودربة .

ان إحياء البارودي للشعر العربي بقوالبه وصياغته وموضوعاته هو الجديد في عصره ، والتمسك به ، والسير عليه هو إحياء لتراث عربي بعد عن الناس فنسوه ، وغاب عنهم فتجاهلوه ، ولذلك تعد معارضاته للشعراء العظام من أهم دعائم النهضة الأدبية التي أرادها ، إذ نقل أصداء القصائد التي كانت ترن في قصور الخلفاء العباسيين الى العصر الحديث ، ولم يشأ أن يجعل لغة هذا الشعر بعيدة عن الجو الذي أراده بل لغة عربية صافية أصيلة ،

ولم يكن ذلك عن تقليد ومحاكاة . بل عن حب وانفعال ومقدرة شعرية يصورها بقوله :

وسرت على آثارهم ولربما
سبقت الى أشياء والله أعلم

وهذا ما ولدّ في نفسه لونا من الاعتزاز بشعره جعله كثير الفخر به ، فهويقول على غرار اعتزاز القدامى بشعرهم :

أقول بطبع لست أحتاج بعده
الى المنهل المطروق والمنهج الوعر
ولي من جناحي - ان عزمت - ومقولي
سراج وعضب ذا يضي وذا يفري
اذا جاش طبعي فاض بالدر منطقي
ولا عجب ، فالدر ينشأ في البحر
تدبر مقالي ان جهلت خليقتي
لتعرفني ، فالسيف يعرف بالأثر
ولا تعجبن من منطقي أن تأرجت
به كل أرض فهو ريحانة العصر
سيذكرني بالشعر من لم يلاقني
وذكر الفتى بعد الممات من العمر

لقد كان البارودي شاعراً عبقرياً نابها عاش بصدق الشاعر القديم ، فقدم شعرا قوي الديباجة ، سائراً على نهج هؤلاء القدماء في بنائهم لقصائدهم ، فالقصيدة عنده على وزن واحد وقافية واحدة وهي - في الغالب - متعددة الموضوعات ، قائمة على الومضات والصور الزاهية والموسيقى الواضحة الحية ، فاذا صور معركة حربية جاءت شديدة الشبه بتصوير القدماء مثل قوله :

فأنت ترى بين الفريقين كبّة
يحدث فيها نفسه البطل الجعد
على الأرض منها بالدماء جداول
وفوق سراة النجم من نقعها لبد
اذا اشتبكوا أوراجعوا الزحف خلتهم
بحوراً توالى بينها الجزر والمد
تشلهم شل العطاش ونت بها
مراغمة السقيا وماطلها الورد
فهم بين مقتول طريح وهارب
طليح ومأسور يجاذبه القد

وحتى عندما يتغزل تسيطر عليه أحيانا الأخيلة القديمة وكأنه شاعر بدوي :

ما كنت أعلم قبل وحي جفونها
أن العيون الجؤذرية تسحر
ظلموا الأسنة خاطئين ، وليتهم
علموا بما صنع السنان الأحور
فاللحظ عضب صارم والهدب نب
ل صائب والقد رمح أسمر

أو يقول :

يا سعد ، قل لي ، فأنت أدرى
متى رعان العقيق تبدو ؟
أشتاق نجدا وساكنيه
وأين منى الغداة نجد ؟
ذاب فؤادي بحب ليلى
يا لفؤاد براه وجد !

أو يقف على الأطلال :

ألا حيِّ من أسماء رسم المنازل
وان هي لم ترجع بيانا لسائل
خلاء تعفتها الروامس والتقت
عليها أهاضيب الغيوم الحوافل

المعارضات :

ومن شدة تعلقه بالشعر القديم ، راح البارودي يسعى الى إحياء موضوعاته وتمثل اسلوبه والنظم على وزنه وقافيته ، ومن هنا كثرت معارضاته للشعراء القدامى ، فقد قرأ للنابغة :

أمن آل مية رائح أو مغتد
عجلان ذا زاد وغير مزود

وعلى غرارها قال :

ظن الظنون فبات غير موسد
حيران يكلأ مستنير الفرقد

وقرأ قول أبي نواس :

أجارة بيتينا أبوك غيور
وميسور ما يرجى لديك عسير

فألف على غرارها قصيدة من غرر أعماله مطلعها :

أبى الشوق الا أن يحن ضمير
وكل مشوق بالحنين جدير(١)

وأعجب بقصيدة المتنبي :

أود من الأيام ما لا توده
وأشكو اليها بيننا وهي جنده

فقال :

رضيت من الدنيا بما لا أوده
وأي امرىء يقوى على الدهر زنده

---

(١) الديوان جـ٢ ص١٨ . وانظر الوسيلة الأدبية جـ٢ ص ٤٧٧ والنص يختلف فيها اختلافا شديدا وبحسبنا أن نذكر أن المطلع يأتي فيها على النحو التالي :

تلاهيت الا ما يجن ضمير
وداريت الا ما ينم زفير

وتوقف أمام قصيدة البحتري :

لنا أبدا بثّ نعانيه في أروى
وحزوى وكم أدنتك من لوعة حزوى

فكان أن ألف قصيدته :

أقلا ملامي في هوى الشادن الأحوى
فقلبي على حمل الملامة لا يقوى

وطالع في الديوان النواسي أيضا :

يا دار ما فعلت بك الأيام
ضامتك والأيام ليس تضام

فطلع على عشاق الشعر في عصره بقصيدة مطلعها :

ذهب الصبا وتوالت الايام
فعلى الصبا وعلى الزمان سلام

وقرأ البارودي قول الشريف الرضي :

لغير العلا مني العلا والتجنب
ولولا العلا ما كنت في الحب أرغب

ثم ألف على نهجها احدى غرر أعماله ومطلعها :

سواي بتحنان الأغاريد يطرب
وغيري باللذات يلهو ويعجب(١)

ومن الاعمال الجميلة التي عارضها قول أبي فراس :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهي عليك ولا أمر

ونعني بذلك قصيدة البارودي :

طربت وعاودتني المخيلة والسكر
وأصبحت لا يلوي لشيمتي الزجر

ويقول أبو تمام قصيدته :

ما في وقوفك ساعة من باس
نقضي حقوق الأربع الأدراس

فيطرب لها شاعرنا ويؤلف على وزنها وقافيتها :

---

(١) الوسيلة جـ٢ ص٤٨٣ ، ٤٨٦ ، والقصيدة في الديوان جـ ١ ص ٨٩ . يتصدرها . «وقال في صباه يروض القول ويذكر الطرد» ويذكر المحققان أنه كتبها وهو في الرابعة والعشرين من عمره . والملحوظ أن الشريف الرضي كتب بدوره قصيدته على غرار قصيدة الكميت ابن زيد :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب
ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب

هل في الخلاعة والصبا من باس
بين الخليج وروضة المقياس(١)

ويقرأ قول المتنبي :

لا افتخار الا لمن لا يضام
مدرك أو محارب لا ينام

فيقول على إيقاعها :

من لعين إنسانها لا ينام
وفؤاد قضى عليه الغرام

وينظم على غرار وزن وقافية بردة البوصيري فيقول في البكاء على الأطلال :

أعد على السمع ذكر البان والعَلَم
واعذر شآبيب دمعي ان جرت بدمي

وهكذا كثرت عند البارودي المعارضات الشعرية كثرة ملحوظة ، ولكنها لا تغض من أصالته ، لأنه كان حريصا على أن يسير في طريق الشعر على هدى من النماذج الرفيعة ، التي أثرت في أجيال الشعراء والقراء العرب من قبل ، ولم يقف عند حد المعارضة الخارجية لهؤلاء الشعراء بل تمثل معانيهم وألفاظهم في كثير من قصائده . وتتحكم البيئة والظروف في دراسة الشاعر فنراها على غرار ما درس وتلقن الشعراء العباسيون ، فاذا كان الشاعر القديم قد تثقف بالثقافة العربية وانتقل الى البادية لتتشرب روحه صفاء اللغة ونقاوتها وتثقف في الوقت نفسه بالثقافة الفارسية ، فقد أخذ البارودي كل هذا من الروافد الأولى متمثلة في آثار هؤلاء الشعراء وسيرهم ، فلا غرابة أن تتلاقى في نفسه أطياف العصور العباسية الزاهية ، مع أحداث ومقومات عصره السياسية والوطنية .

لقد عاش بلغته مع الشاعر العربي وبفكره مع أبناء وطنه وربط قلبه بحب المعالم العربية القديمة وبحب تراب الأرض التي عاش عليها ومن ثم نسمعه يقول حينا :

أيها الساهرون حول وسادي
لست منكم أو تذكروا لي نجدا

---

(١) ديوان جـ ٢ ص ١٦٣ والمعارضة واضحة ومع ذلك لم يذكرها المرصفي أو غيره عند الحديث عن معارضات البارودي للشعراء العباسيين .

وعهودا لم يترك الدهر منها
لأخي صبوة ذماما وعهدا
ونسيما اذا سرى ضوع الآ
فاق مسكا وعطر الجو ندا
لا تخوضوا في غيره من حديث
فهو حسبي وأي ماء تصدا

ولكنه في أحايين أخرى يمتلىء إحساسا بعصره، ويعيش في صدره الحنين لأرض مصر وترابها وأهلها وأماكن صباه ومرتع لهوه فيقول :

خليلي هذا الشوق لا شك قاتلي
فميلا الى « المقياس » ان خفتما فقدي
ففي ذلك الوادي الذي أنبت الهوى
شفائي من سقمي ، وبرئي من وجدي
ملاعب لهو طالما سرت بينها
على أثر اللذات في عيشة رغد
اذا ذكرتها النفس سالت من الأسى
مع الدمع حتى لا تنهنه بالرّدّ

تأثر بالبهاء زهير :

الى جانب التأثر بالأعمال العباسية ذات الطابع العريق والأساليب الجزلة ، نجد البارودي متأثراً تأثراً شديداً بشاعر من شعراء القرن السابع الهجري هو البهاء زهير ، الذي اشتهر بطابع الرقة والعفوية الآسرة ، والأساليب التي تكاد من فرط بساطتها أن تبدو كأنها من الكلام العادي حتى اذا ما اقترب الانسان منها تبين مدى ما فيها من فن ، ومن ثم أطلقوا على اسلوبه اسم « السهل الممتنع » .

ونتوقف امام هذه النقطة في شيء من التفصيل لأن الدارسين يربطون في العادة بين شعر البارودي ومن سبقوه من شعراء العصور العباسية ، ولكنهم قلما يشيرون الى تأثر البارودي بمنهج البهاء زهير السهل العفوي .

وقد عرفت العربية شعراء كثيرين تميزوا باليسر والسهولة كأبي العتاهية والعباس بن الأحنف ـ لكن البهاء زهير وصل في هذا المنزع الى الذروة .

والملحوظ ان الشيخ المرصفي ـ أستاذ البارودي ـ كان من المفتونين بشعر البهاء زهير ، وكان يراه خير ممثل لنزع السهولة في الشعر وحجتنا في هذا أنه أفرد صفحات كثيرة من « الوسيلة الأدبية » لنماذج من شعره السهل وقدم لها بقوله :

«وهذا النوع يتفق الشعراء اتفاقا ولا يكون شعر شاعر كله على هذا النمط خلا الصاحب بهاء الدين زهير المصري فانه قد انقاد له انقيادا في سائر شعره كأنك عند استماعه في محادثة انسان ظريف من لطفاء المصريين »[1] .

وهكذا نجد للبارودي قصائد «زهيرية» الطابع لدرجة أن القارىء المتبصر بشعر البهاء زهير ما كان سيدهش لو أنه رآها في ديوان شاعرنا الأيوبي بدلا من ديوان البارودي ، وذلك مثل قوله :

يا بنت سيدة النسا
ء ترفقي بحياة أمك
ما فيّ منبت شعرة
الا به أثر لسهمك
كلا ولا في مهجتي
من طول صدك غير همك
أصبحت ممتنع الكرى
لما جفاني بدر تمك

أو مثل قوله :

أغرة تحت طره
أم نور فجر بسحره

وهي ذات طابع قصصي يعتمد على الحوار :

فقلت يا نور عيني
مالي على الصبر قدره
فنقبت وجنتيها
يد الحياء بحمره
وقالت اسكت والا
تصير في الناس شهره
فقلت هل من وصال
يكون للحب أجره
فاستضحكت ثم قالت
على الخديعة : بكره

ومثل قوله :

لوى جيده وانصرف
فما ضره لو عطف

وهي أيضا ذات طابع قصصي تتحدث عن هذا الغزل المولع بالصلف ويهرع المحب اليه :

فقلت له : سيدي
ترفق بصب دنف
فإني عفيف الهوى
وما كل صب يعف

(١) الوسيلة جـ ٢ ص ١٦٣ .

وأنشدته قطعة
وشعري ، احدى الطرف
فأصغى لها باسما
وبان عليه الأسف

وفي نص آخر يقدم قصة متكاملة الأطراف تعتمد على شكل حوار ينساب في عفوية ، تكسوه تلك اللمحات الذكية الفاتنة التي حفل بها شعر البهاء :

قالت وقد سمعت شعري فأعجبها
اني أخاف على هذا الغلام أبي
أراه يهتف باسمي غير مكترث
ولو كني لم يدع للظن من سبب
فكيف أصنع ان ذاعت مقالته
ما بين قومي وهم من سادة العرب
فنازعتها فتاة من صواحبها
قولا يؤلف بين الماء واللهب
قالت : دعيه يصوغ القول في جمل
من الهوى ، فهي آيات من الأدب
وما عليك وفي الأسماء مشترك
ان قال في الشعر ياليلى ولم يعب؟
وحسبه منك داء لو تضمنه
قلب الحمامة ماغنت على عذب

فاستأنست ، ثم قالت وهي باسمة
ان كان ما قلت حقا فهو في تعب
يا حسنه من حديث شف باطنه
عن رقة ألبستني خلعة الطرب

ويصور لنا في قصيدة اخرى شخصيته يغلب عليها الشره وضعة النفس تجيء وكأنها تنتمي الى نفس الروح « الزهيرية » صاحبة :

وأحمق ذي لحية
كبيرة منتشره

يقول البارودي :

وصاحب لا كان من صاحب
أخلاقه كالمعدة الفاسده
أقبح ما في الناس من خصلة
أحسن ما في نفسه الجامده
يغلبه الضعف ولكنه
يهدم في قعدته المائده
يراقب الصحن على غفلة
من أهله كالهرة الصائده
كأنما أظفوره منجل
وبين فكيه رحى راعده
كأنما البطة في حلقه
نعامة في سبسب شارده

في هذه النماذج التي سقناها اقتباسات كثيرة من جمل تجري على ألسنة الناس ، ومن أمثال العامة وشؤون الحياة اليومية ، وهذا كله مما برع فيه البهاء زهير واقترن باسمه في تاريخ الأدب وانظر الى قول البارودي :

يا بنت سيدة النسا
ء ترفقي بحياة أمك

ولا شك أن الذوق «الكلاسيكي» يستنكر قوله «بحياة أمك» أما البهاء زهير فانه كان جريئا في هذا المضمار ، لا يبالي أن يقول :

بروحي من اسميها بستي
فتنظر لي النحاة بعين مقت

وقد استعمل البارودي فيما قدمناه ألوانا من الحوار والدعابة والظرف والاتكاء على الأخيلة الشعبية على نحو يكشف عن براعة متناهية النظير .

أثر المنفى في شعر البارودي :

كان البارودي يمزج في شعره بين الصور القديمة والحديثة ، ويزاوج بين خيال شاعر الصحراء وثقافة شاعر يعيش في القرن التاسع عشر وينفعل بأحداثه ويخوض غمار الحروب مع قوات الدولة العثمانية ثم يعود ليتقلب في المناصب ويصل الى الوزارة فيرأسها ، ثم تهوي به تصاريف الايام فينفى عن موطنه ، ويحال بينه وبين الأهل والأحبة والترف والمجد والسؤود ، ولا يبعده هذا النفي عن الشعر بل يزيد ضرامه في النفس تأججا ، وينعكس ذلك في القصائد التي يجلي فيها مشاعره تجاه وطنه ، والتي تنضج بالبوح والغضب والأحزان على الأيام التي ضاعت والآمال التي تهشمت ، وكل شيء في المنفى يلهب حنينه الى دياره ، خاصة اذا جاءه نعي أحد الأصدقاء ، أو ابن من الابناء ، أو إذا مر بخاطره ليلا طيف أحد أبنائه ، وهذا النفي صبغ شعره بحب جارف ، وحنين قوي ، لكل ما يتصل بأرض الوطن ، وجعل هذه الأغراض خالصة الصدق عنده ، فهي ليست مجرد حنين تقليدي لأماكن اللهو سنوات الشباب الضائع ، بل هي الحب الصادق ، والوله العميق، لشاعر أبعد قسرا عن موطنه وهوى من قمة المجد الى ذل المهانة . هنا اذن ينبض بالفجيعة وروح المأساة وليس مجرد التشوق

التقليدي الذي يردده الشاعر كلما ابتعد عن دياره وفارق أحبابه ، والغربة هنا أقوى من الموت وأعمق من أن تقارن بأي احساس آخر ، ولا أجمل من آهة البارودي عندما يمر أمامه طيف ابنته في ظلمة الليل فيناجيها بأبيات كلها حب وشجن :

تأوب طيف من سميرة زائر
وما الطيف الا ما تريه الخواطر
طوى سدفة الظلماء والليل ضارب
بأرواقه والنجم بالأفق حائر
فيا لك من طيف ألم ودونه
محيط من البحر الجنوبي زاخر
تخطى اليّ الأرض وجدا وماله
سوى نزوات الشوق حاد وزاجر
ألمّ ولم يلبث وسـار وليتـه
أقام ولو طالت عليّ الدياجر
تحمل أهوال الظلام مخاطـرا
وعهدي بمن جادت به لا تخاطر
خماسية لم تدر ما الليل والسرى
ولم تنحسر عن صفحتيها الستائر
عقيلة أتراب توالـين حولهـا
كما دار بالبدر النجوم الزواهر
غوافل لا يعرفن بؤس معيشة
ولا هنّ بالخطب الملم شواعر
تعودن خفض العيش في ظل والد
رحيم وبيت شيدته العناصر

لقد فارق الشاعر ابنته وهي في الخامسة من عمرها ، طفلة في عمر الزهور ، ورقة العصفور ، والشاعر يهفو اليها ، ويريد أن يتجاوز الأحداث والزمن ويراها كما كانت من قبل ، ترتع في بحبوحة النعيم ، لكن قيود المنفى تحول دونه ، والطيف يتوارى في الظلام ، مخلفا له الحسرة والفجيعة والخوف على ابنته من المجهول .

ونجد في شعر المنفى بكائيات على أحبابه الراحلين مثل الشيخ المرصفي والشاعر عبد الله فكري،وكانا قد ارتحلا للرفيق الأعلى سنة ١٣٠٧ هـ ، وهنا لا نجد أنفسنا أمام مجرد رثاء عادي بل ولا أمام رثاء فيه صدق وحرارة إذ أن الشاعر وهو يرثي هؤلاء انما يرثي نفسه التي دفنت تحت رماد المنفى :

يا نديميّ من سرنديب كفّـا
عن مـلامي وخلياني لمـا بي
كيف لا أندب الشباب ،وقـد أصبحت
كهـلا في محنـة واغتـراب
أخلق الشّيب جدّتي وكساني
خلعـة سـه رثـة الجلبـاب

ولوى شعر حاجبيّ على عيـ
ـني حتى أطّل كالهداب
لا أرى الشيء حين يسنح الا
كخيال كأنني في ضباب
واذا ما دعيت حرت كأني
أسمع الصوت من وراء حجاب
كلما رمت نهضة أقعدتني
ونية لا تقلها أعصابي
لم تدع صولة الحوادث مني
غير أشلاء همة في ثياب
فجعتني بوالديّ وأهلي
ثم انحت تكرّ في أترابي
كلّ يوم يزول عني حبيب
يا لقلبي من فرقة الأحباب !

وكان البارودي كثيرا ما يسعى الى كبح جماح هذه الإنفعالات ومحاولة التعلل بالصبر وضبط النفس ومن ثم نراه يقول :

صبرت على كره لما قد أصابني
ومن لم يجد مندوحة فهو صابر
وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز
بمستحسن كالحلم والمرء قادر
ولكن اذا قل النصير وأعوذت
دواعي المنى فالصبر فيه المعاذر

ومن هذا الحنين قوله وهو بسرنديب :

أعائد بك يا ريحانة الزمن
فيلتقي الجفن بعد البين والوسن
أشتاق رجعة أيامي لكاظمة
وما بي الدار لولا الأهل والسكن

ويتدفق الحنين ايضا في قصيدته التي قالها في المنفى :

واطول شوقي اليك يا وطني
وان عرتني بحبك المحن
انت المنى والحديث إن أقبل الصبـ
ـح وهمي ان رنّق الوسن

الزهد واللجوء الى الله :

ولقد كان الشاعر في حاجة الى العزاء والسلوان وهو في منفاه وعندما تشتد به الضائقة وتجرفه الآلام لا يجد الا الشعر يسري به عن نفسه لذلك نجد موضوعات منفاه تتغير وتتعدد بحسب مشاعره وأحواله ، فهو مرة زاهد ممعن في الزهد لاجيء الى رحمة الله يحاول أن يجد الهدوء والسكينة إمّا في مناجاة الرسول أو في الحث على ترك ملذات الحياة ولهوها ، أو في الدعوة للتذكر والتدبر بأيام الانسان وأعماله وهو في

هذه الموضوعات التي يصوغها على عادة الشعراء القدامى من أمثال أبي العتاهية أو البوصيري - انما يسعى من ورائها أن تكون بلسما للجراح ومسلاة للنفس الحزينة ، وهذا هو الجديد في زهديات البارودي وتأملاته - لقد جاءت هذه الأشعار تقليدية الموضوع تقليدية الصياغة ، ولكنها زفرات صادقة لنفس الشاعر وانفعالاته ، وعندما تثقل وطأة المنفى على كاهله يهرع لباريء الكون متوسلا به راجيا العون على مواجهة الأيام :

يا رب بالمصطفى هب لي - وان عظمت
جرائمي - رحمة تغني عن الحجج
ولا تكلني الى نفسي فان يدي
مغلولة وصباحي غير منبلج
مالي سواك وانت المستعان اذا
ضاق الزحام غداة الموقف الحرج
لم يبق لي أمل الا اليك فلا
تقطع رجائي فقد أشفقت من حرجي

والحديث عن الذات يشغل في هذه القصيدة حيزا لا بأس به ، وهذه سمة من سمات شعر البارودي في الاغراض الدينية ، لأنه كتب هذا الشعر باحساس عميق بالألم والعجز والضياع :

فما احتيالي ؟ ونفسي غير صابرة
على البعاد ، وهمي غير منفرج
لا أستطيع براحا ان هممت ولا
أقوى على دفع ما بالنفس من حوج
لو كان للمرء حكم في تنقله
ما كان الا الى مغناه منعرجي

ومن هذا الطراز المعبر عن الشجن النابض بالاستغاثة وطلب الرحمة قوله :

سل مالك الملك فهو الآمر الناهي
ولا تخف عاديا فالأمر لله

أو قوله :

أي شيء يبقى على الحدثان
والمنايا خصيمة الحيوان

ومنه كذلك :

ما أطيب العيش لولا أنه فاني
تبلى النفوس ولا تبلى الجديدان

كشف الغمة :

وقد بلغ البارودي القمة في عمل فريد نشر مستقلا في كتيب يقع في ٤٨ صفحة وظهر سنة ١٣٢٧ (أي بعد خمس سنوات من

وفاة الشاعر) وهذا العمل ليست له الا مقدمة قصيرة يقول فيها :

(. . . هذه قصيدة ضمنتها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من حين مولده الكريم الى يوم انتقاله الى جوار ربه ، وقد بنيتها على سيرة ابن هشام وسميتها «كشف الغمة في مدح سيد الأمة » ورغبتي الى الله أن تكون لي ذريعة أحتمي بها يوم المعاد ، وسلما الى النجاة من هول الحشر ، اللهم فحقق رغبتي اليك واكسها بفضلك رونق القبول) .

وتقع (كشف الغمة) في ٤٤٧ بيتا أولها :

يا رائد البرق يمم دارة العلم
واحد الغمام الى حي بذي سلم

وهذه المطولة معارضة لميمية البوصيري الشهيرة :

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وهي التي تعرف بقصيدة البردة ، وما أكثر الذين تأثروا بها وكتبوا على وزنها وقافيتها ، وبردة البوصيري ألهمت كثيرين ان ينظموا قصائد يراعون فيها أن يتضمن كل بيت لونا من ألوان البديع ، ومن هنا عرفت هذه القصائد باسم «البديعيات» ومن أشهرها بديعية صفي الدين الحلي وبديعية عز الدين الموصلي وبديعية ابي الفدا وبديعية ابن حجة الحموي (التي شرحها في كتابه خزانة الأدب) وبديعية عائشة الباعونية . . . الخ .

أما البارودي فانه أعلن أنه لن يسير في ركاب هؤلاء بل سيعرض على المعنى الفصيح والألفاظ البليغة :

لم التزم نظم حبات البديع بها
اذ كان صوغ المعاني الغر ملتزمي
نثرت فيها فريد المدح فانتظمت
أحسن بمنتثر منها ومنتظم

والحق ان البارودي - بهذه القصيدة - قدم عملا من أجل الأعمال الحديثة التي تعود بالشعر الى مرحلة الفن الحقيقي ، فلا زخارف ولا تكلف ، بل طبع ونقاء وحرارة في الأداء تناسب مع جلال الموضوع الذي يعالجه ، وهل هناك أسمى ولا أنبل من الحديث عن عظمة الرسول الهادي الى النور ؟

والشاعر يبدأ مدحته بإشارات لطيفة عذرية ، ثم يدعو لديار الأحبة بالسقيا :

أدعو الى الدار بالسقيا وبي ظمأ
أحق بالري لكني أخو كرم
منازل لهواها بين جانحتي
وديعة سرها لم يتصل بفمي
اذا تنسمت منها نفحة لعبت
بي الصبابة لعب الريح بالعلم

وتمتلىء نفسه بالحزن عندما يرى نفسه مكبلا بأغلال المنفى (في بلدة مثل جوف البعير) ، بلدة لا يستقر بها الا على قلق ، والغربة تثقل عليه ، والوحدة تضيق عليه الخناق ، لكنه لا ييأس من رحمة الله ، ويهرع الى رحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوذ به ، وهل هناك في خلق الله من هو أعلى منه مكانة ، انه :

نور تنقل في الأكوان ساطعه
تنقل البدر من صلب الى رحم

وهكذا تبدأ الرحلة مع مراحل حياة الرسول الكريم ، رحلة عامرة بأعظم المواقف وأشرف الفعال ، والشاعر بارع في اختياره وفي لقطاته ، وقد أفرد لغزوات الرسول مكانا كبيرا في هذه المطولة فكأنها في الحقيقة لوحات عن الغزوات .

ومن الجميل في القصيدة أن البارودي عرف كيف يربط بين المديح وبين الحديث عن المنفى والمحنة التي مر بها ، وهذا الربط أعطى لعمله احساسا إنسانيا صادقا عذبا ، على نحو ما يتضح في قوله :

لم يترك الدهر لي ما أستعين به
على التجمل الا ساعدي وفمي
هذا يحبر مدحي في الرسول وذا
يتلو على الناس ما أوحيه من كلمي

ومن أبياتها الجميلة :

يا مالك الملك هب لي منك مغفرة
تمحو ذنوبي غداة الخوف والندم
وامنن عليّ بلطف منك يعصمني
زيغ النهى يوم أخذ الموت بالكظم
لم أدع غيرك فيما نابني فقني
شر العواقب واحفظني من التهم
حاشا الراجيك أن يخشى العثار وما
بعد الرجاء سوى التوفيق للسلم
ولي بحب رسول الله منزلة
أرجو بها الصفح يوم الدين عن جرمي

وبهذه المناجاة نختم سطورنا عن البارودي وشعره ، هذا الشعر الرقراق القوي ، الذي ينهل من معين الصدق والفن ، والذي يعد ـ باتفاق دارسي الأدب ـ البداية الحقيقية لنهضة الشعر العربي في العصر الحديث .

المَراجِع

ديوان البارودي : أربعة أجزاء ، جـ ١ حققه علي الجارم ومحمد شفيق معروف (من قافية الهمزة الى الذال) القاهرة ١٩٤٠ ط ثانية ١٩٧١ م جـ ٢ بتحقيق الجارم ومعروف (من قافية الراء الى قافية الكاف) القاهرة ١٩٧١ م .
جـ ٣ بتحقيق معروف (من قافية اللام الى قافية الميم) القاهرة ١٩٧٢ م
جـ ٤ بتحقيق معروف (من قافية النون الى قافية الياء) القاهرة ١٩٧٤ م
د ـ علي الحديدي : البارودي شاعر النهضة ، القاهرة ١٩٦٩ م .
د . علي الحديدي : البارودي (مجموعة أعلام العرب) نفس الكتاب السابق محذوفا منه بعض الفصول .
د . شوقي ضيف : البارودي رائد الشعر الحديث ، القاهرة ١٩٦٤ م
عمر الدسوقي : محمود سامي البارودي ، القاهرة ط ثالثة ١٩٧٠ م
عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ط خامسة ، القاهرة ١٩٦١ م
د . محمد صبري : أدب وتاريخ واجتماع ، القاهرة ١٩٥٠ م